وثيقة جديدة

حول العامية في الغرب والأندلس

للمستعرب جورج كولان
أستاذ في كوليج دو فرانس

ان الادب المخصص من طرف نحاة العرب للاغلاط العامة ، هو من بين المصادر القليلة التى نقتبس منها وضع اللهجات العربية خارج الجزيرة . وبالرغم عن كون ذلك قد وضع فى شكل بسيط هو ، قل ولا تقل ، بالرغم عن كونه يعالج خاصة أغلاط الشكل فاننا نجد أيضا – الاشارة الى ما يتصل بالمصطلحات واستعمال الكلمات العربية المولدة ، وكذلك العامية العجمية والدخيلة .

وقد نشرت معظم الكتب الهامة التى خصصت للاغلاط المرتكبة من طرف السكان الشرقيين للعالم الناطق بلغة الضاد (1) . ولكن لم نعثر لحد الآن على ما يشبه هذا بالنسبة للمغرب العربى ، رغم كون رجال التراجم قد أشاروا الى عدة مصنفات فى هذا الباب والكتاب الموجز المنشور هنا (2) ليس سوى مقتطف من كتاب ابن خاتمة المرى الذى ليس هو أيضا سوى مختصر لمصنف أهم ، لمؤلفه ابن هشام السبتى ، فالامر يتعلق هنا اذن للمرة الاولى بدراسة تتعلق بلهجاب المغرب (الاقليم الاسبانى) كما تشهد بذلك طبيعة الملاحظات الواردة فى الكتاب .

وابو جعفر أحمد بن على بن محمد بن خاتمة الانصارى قد ولد فى المرية سنة 724–1324 م وتوفى بعد سنة 770–1369 . وقد عرف خاصة لحد الآن كشاعر ، وكذلك كمؤلف لكتاب حول الوباء الذى جرف بالمرية بين الف 1348–1349 والمؤلف الثانى بين المصنفين المشار اليهم فى المدخل الموجز للنص العربى – هو محمد بن هانىء السبتى الذى يجب ان لا نخلط بينه وبين الشاعر التونسى المشهور الذى يحمل نفس الاسم والذى ورد على اسبانية ليستوطن بها فتوفى عام 362–973 م وهذا الشاعر هو محمد بن هانىء الاندلسى ، ومترجمنا هو محمد بن هانىء اللخمى السبتى (3) الذى ولد فى سبتة من ابوين اشبيليين ، وعاش فى غرناطة وتوفى بجبل طارق سنة 733–1332 م

وقد أشير من بين مصنفاته الى (انشاد الضوال وارشاد (4) السؤال) الذى يعالج أغلاط العامة ويفيدنا مدخل الكتاب كذلك ان ابن هانىء اقتصر فى مصنفه هذا على ترتيب ما جمعه لغوى آخر هو ابن هشام .

وهذا الشخص – أيضا – ينبغى أن لا يختلط عندنا مع شخصين آخرين من النحاة العرب (5) وهما عبد الملك

---

1 – ككتب الكسائى وابن قتيبة والحريرى والجواليقى وابن كمال باشا والخفاجى
2 – اى هسبريس . عدد 12 – الفصلة الاولى – سنة 1931 (تعريب اللسان العربى باختصار)
3 – السيوطى . بغية الوعاة – القاهرة 1326 – ص 82
4 – الصواب . «السؤال» بالتشديد ، ولم يسمه السيوطى الا بلحن العامة «البغية» ص 82
5 – أشار السيوطى فى فهرس الاعلام الملحق بالبغية «الطبعة المذكورة» ص 437 الى ثمانية من اللغويين المشهورين الذين سموا بابن هشام .

ابن هشام البصرى المتوفى حوالى 830 ـ وعبد الله بن هشام القاهرى المشهور المتوفى عام 1360 . أمافى كتابنا هذا فالمراد هو محمد بن احمد بن هشام اللخمى السبتى الذى أفرده ابن الابار فى تكملة كتاب الصلة ، بترجمة (6) ذكر فيها ان ابن هشام سكن سبتة . وكنى بأبى عبد الله ودرس على أبى بكر ابن العربى وأبى طاهر السلفى واقرأ اللغة العربية ، وهى مادة اختص فيها واهتم بها الى جانب تدريس الادب وأنواع اللهجات الا انه لم يهتم بالشعر . وقد صنف كتبا مفيدة استعملها الناس ، ومن بينها كتاب الفصول والجمل (حيث شرح أبيات الجمل للزجاجى وصحح بعض الآراء الواهمة والالفاظ الضعيفة الواردة فى الشعر المنصوص عليه عند سيبويه او تعليق الاعلم عليه) .

وكذلك الف كتابا فى لحن العامة وشرح كتاب الفصيح لثعلب والمقصورة لابن دريد . وقد قرأ أبو عبد الله ابن الغازى هذه المؤلفات على صاحبها ، ثم أقرأها بدوره . وختم ابن الابار كلامه مشيرا الى انه استفاد من بعض الكتب ما يشهد ان ابن هشام كان متصدرا للتدريس عام557هـ (ـ 1161ـ1162 م) فابن هشام السبتى كان اذن معاصرا لكبار علماء اللغة الشرقيين من العصر الثانى أمثال الجريرى المتوفى عام 1122 م والجواليقى المتوفى عام 1144 وابن برى المتوفى سنة 1187 .

وقد نقل السيوطى فى البغية ما أشار اليه ابن الابار مضيفا كتابين آخرين هما : (المدخل فى تقويم اللسان وتعليم البيان) الذى أشار اليه التجيبى فى رحلته وكذلك قطعة شعرية صغيرة اشتملت على المعانى الاثنى عشر لكلمة خال والتى نسبها الى ابن هشام ابن دحية فى كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب .

ويوجد فى القسم العربى بالاسكوريال كتابان لابن هشام يعالجان نفس الموضوع الذى يعالجه الكتاب الذى ننشره اليوم وقد سجل الكتابان تحت رقمى 46ـ99 من فهرس (ديرمبورك) فالكتاب المرقم بـ 46 هو كتاب الرد على الزبيدى فى لحن العوام وقد ذكر السيد ديرمبورك الذى درس هذا المخطوط عن كتب انه يحتوى على ملاحظات وانتقادات لا تمس الزبيدى وحده (7) ولكنها تمس ايضا كتابا لابن مكى (8) هو تثقيف اللسان وتلقيح الجنان (9)

أما المخطوط رقم 99 فهو يحمل اسم كتاب المدخل المشار اليه من طرف السيوطى حسب ما سبق ان ذكره التجيبى فى شأنه غير أن السيد ديرمبورك الذى قارن بين المخطوطين قد لاحظ انه بالرغم عن اختلاف الاسمين فان النص واحد (راجع كتابه مخطوطات الاسكوريال العربية) ج 1 ص 58 .

ومن الغريب أيضا اغفال ابن الابار لهذين الاسمين مع أن هذا الاخير عاش بعد وفاة ابن هشام باقل من قرن فلعل ذلك راجع الى أن الكتاب الوحيد الذى ينطبقان عليه هو أيضا الذى أشار اليه صاحب التكملة عندما أعطاه ذلك الاسم الغامض وهو كتاب فى لحن العامة .

وقد جمع ابن هشام السبتى حول كتاب الزبيدى عددا من الملاحظات والتصحيحات دون أن يرتبها ولا أن يحررها فى شكل يجعل منها مصنفا وهذه الملاحظات هى التى نشرت عام 607ـ1210 من طرف تلميذ مباشر أو غير مباشر للمؤلف ، هو على بن محمد الغافقى الذى عرف باسم ابن الشارى والذى أعانه تلميذ آخر له هو محمد بن حسن بن عطية ، ولعل هذين الناشرين هما اللذان سميا مجموعة ملاحظات ابن هشام بكتاب المدخل ، كما أن ابن هانىء قد قام بعد ذلك بقرن بترتيبها ونشرها بعنوان : « كتاب انشاد الضوال»

---

6 ـ راجع ايضا البغية ص 16

7 ـ الزبيدى هذا هو أبو بكر محمد بن الحسين أحدرجال اللغة فى اسبانيا أصله من اشبيلية واستوطن قرطبة ودرس على القالى وتوفى عام 379ـ989 وهو فى طليعة اللغويين العرب فى الغرب الاسلامى وله كتاب «لحن العامة» راجع التكملة ص 920 والبغية ص 34 وقدوهم بروكلمان عند ما نسب هذا الكتاب الى ابن هشام آخر عاش فى مصر آخر القرن السادس .

8 ـ لعله جعفر بن محمد بن مكى القيسى أحد رجال اللغة فى قرطبة والمتوفى سنة 535ـ1140 وقد ترجمه ابن بشكوال فى الصلة ، وأشار اليه السيوطى فى البغية ص 212 غير انهما لم يشيرا الى كتابه تثقيف اللسان رغم تنصيص ابن بشكوال على ضلاعته فى اللهجات واللغات وانه جمع كتبا شتى فى هذا الباب ، ولم يشر الى تثقيف اللسان الا ابن خلكان .

9 ـ ضبطها الاستاذ كولان بكسر الجيم والصواب فتحها «المعرب»

واذا مـــا تحققت تخميناتنا فان شجرة (10) النسب ستكتمل بالنسبة للموجز الذى ننشره اليوم وتتلخص عناصرها فى :

اولا : كتاب لحن العامة الذى ألفه فى القرن العاشر الزبيدى الأندلسى وهو من أقدم اللغويين العرب الذين اهتموا باللحن ، (على أنه يظهر ان أقدم اللغويين هـو الكسائي العراقى المتوفى حوالى سنة 190ـ805 .

ثانيا : تثقيف السان وتلقيح الجنان الـذى صنفه ابن مكى القرطبى فى النصف الاول من القرن الثـانى عشر .

ثالثا : ما جمعه ابن هشام السبتى مـــن تصحيحات واضافات فى النصف الثانى لنفس القرن حول الصنفين المذكـــورين .

رابعا : كتاب المدخل فى تقويم اللسان وهـو عبارة عن المذكرات المشار اليها ، جمعها ونشرها عـام 1210 تلميذان لابن هشام .

خامسا : رتبت هاته المذكرات خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر الميلادى من طرف ابن هانىء السبتي الذى نشرها باسم انشاد الضوال .

سادسا : مختصر ابن خـاتمة المرى باسم ايـراد اللآل خلال النصف الثانى للقرن الرابع عشر .

سابعا : ثم جاء شخص مجهول فى عصر غـير محدد فاستخلص هذا الموجز الذى ننشره وبالرغم عن كون ابن هشام قد جمع فى سبتة مواد كتابه الاول ، فمـــن المجازفة الادعاء ان ما ورد فيه من لغويات يتسم خاصة بطابع مغربى ، فاذا كـــانت بعض المصطلحات المشار اليها فى هذا الكتاب قد انفردت بهـا افريقيا الشمالية على ما يلوح (11) فان اغلب ملاحظات ابن هشام تنطبق على لغويات دقيقة ملحوظة فى اللهجـــات الاندلسية ، وينبغى مع ذلك ان نعترف بان معلوماتنا عن هـــاته الاخيرة أكثر منها عن اللهجات المغربية القـــديمة التى تعوزنا عنها وسائل المقارنة .

على أنه لا ينبغى ان نغفل عن كون سبتة هى قبـــل كل شىء اندلسية الطابع بالرغم عن قيامها فوق التراب المغربى وذلك سواء من ناحية وضعها الجغرافى او من ناحية أصل سكانها وعلاقـــاتهم السياسية والفكرية والتجـــارية .

فالبكرى الذى ألف كتابه عام 1068 يذكر أن قـوام سكان سبتة من العنصر العربى (من سلالة قبيلة صديف الحميرية ، ومن البرابرة المنحدرين من ارباض أصيلا والبصرة فى ناحيه الهبط . ولعلهم نقلوا اليها من طرف الامراء الادارسة «أسرة بنى محمد» الا ان جزءا كبيرا من سكان مدينة فلشانه قرب شريش استقروا فى سبتة فارين من المجاعة منذ القرن التاسع فى عهد بنى عصام ولاة سبتة عن الادارسة المذكورين وفى عام 973 استولى الحكم المستنصر الاموى على سبتـــة وأضافها نهائيا الى مملكته ، غير ان المدينة رجعت بعد انهيار الحكم الاموى الى يد الحموديين ، وهم شعبة من ادارسة المغرب الذين ظلت عاصمتهم ومركزهم السياسى هى مالقة . وهكذا بقيت سبتة مدينة اندلسية من الوجهة السياسية مـن القرن العاشر الى ان استولى عليها يوسف بـن تاشفين المرابطى عام 1083 واحتفظت بطابعها هذا فكريا وتجاريا على الاقل الى أن احتلها البرتغاليون عـام 1415 . وقـد أشرت من جهة اخرى عند دراستى للحن العامة الوارد عند بعض المؤلفين المغاربة الى ان هـــاته المصطلحات اللهجة كان معظمها أندلسى الطابع فنهذا يمكننا ان نقول على طريقة التخمين ان اللهجة العربية المغربية المتداولةفى مدن الشمال وحدها، وكذلك فى قبائلها كانت قريبةجدا من عربية الاندلس ، وذلك قبل نقل بنى هلال الى المغرب عام 1188 وبالاخص قبل تطور نفوذهم السياسى فيهذه البلاد (وذلك يرجع خاصة الى عهد بنى مرين ابتـــداء من القرن الثالث عشر) وهذا التخمين مـــن شأنه أن يساعدنا على القول بأن أغلب الملاحظات التى أوردها ابن هشام بصدد دراسته لعامية سبتة تنطبق أيضا على بعض المصطلحات الاندلسية اللغوية ، ولعلنا سنتوفر يوما مـا على ما يحدونا الى التفكير فى خصوص ما قبل الهلاليين الى امكانية وجود مجموعة لغوية تتسم بطـــابع الغرب العربى تضم الى جانب السكان الحضريين فى اسبانيا المسلمة سكان المغرب ومالطة وصقلية .

---

10 ـ هذه الشجرة هى عبارة عن لائحة ما صنف فى المغرب الناطق بلغة الضاد حول أغلاط العامة ولعل الكتاب الوحيد الذى لم يشر اليه هو «كتاب الفوائد العامة» فى لحن العامة لابن القاسم محمد بـن أحمد بن جزى الكلبى الغرناطى المتوفى عام 741ـ1340 والذى هو أحد شيوخ ابن الخطيب ووالد محرر مذكرات «رحلة ابن بطوطة» (نفـــح الطيب) مطبعة بولاق عـام 1279 ج 3 ص 272 .

11 ـ مثل وادى يليان وهيدورة ومتـــرد ومشمش ومسجد ومسيد